الفصل الرابع

المترجمون

كانت أولى الدلالات وأهمها على التكيف الجديد فى الفكر الإسلامى فى الإنتاج الغزير للترجمات العربية من مؤلفات تتناول الفلسفة والمواد العلمية . وكان من نتيجة ذلك أن استحوذ العالم الذى يتكلم العربية بعد سقوط الأمويين بثمانين عاماً على ترجمات لمعظم مؤلفات أرسطو ، وشراح الأفلاطونية المحدثة ، وبعض أعمال أفلاطون ، ومعظم مؤلفات جالينوس، وأجزاء من مؤلفات أخرى فى الطب ومن شروحها ، ثم من مؤلفات علمية إغريقية ، ومؤلفات هندية وفارسية مختلفة . وقوام هذا العهد من النشاط فى الترجمة مرحلتان : تبدأ أولاهما من استيلاء العباسيين على الخلافة إلى خلافة المأمون (١٣٢ — ١٩٨ هـ) ، حيث قام مترجمون مستقلون بقدر كبير من الترجمة ، ومعظمهم من المسيحيين واليهود والمهتدين الذى دخلوا الإسلام من الديانات الأخرى غير الإسلامية . أما الأخرى ففى حكم المأمون وخلفائه المباشرين ، حيث تركز عمل الترجمة فى مدرسة أسست حديثاً فى بغداد ، وبذل جهد دائب لجعل المادة الضرورية للبحث الفلسفى والعلمى فى متناول الطالب الذى يتكلم العربية .

وترتبط الترجمة فى أول عهودها بعبد الله بن المقفع ، وهو فارسى زراعشتى اعتنق الإسلام على يد أخ لمحمد بن على أبى السفاح ، وأصبح

أميناً لسره .. وفى أثناء اعتماده على حماية مولاه خاطر بهجاء أعيان العرب ، ولا سيما سفيان أمير البصرة الذى اعتاد ابن المقفع أن يحييه بإشارة وقحة تطعن فى طهر أمه . وقد يبدو أن العرب الأصلاء الذين ولوا الولايات تحت حكم العباسيين الأوائل كان لابد لهم من التغاضى عن مثل هذه الإهانات من قطينهم السابقين . وبعد ثورة فاشلة قام بها أحد أعمام الخليفة ، طلب هذا إلى ابن المقفع أن يعد رسالة أمان ترسل إلى الخليفة المنصور الذى ولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، ليضع عليها خاتمه . ولكنه كتب الرسالة بصورة أغضبت الخليفة، إذ تقول فيما تقول : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن على ، فنساؤه طوالق . ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » . ولقد سأل الخليفة عمن كتب هذه الرسالة ؛ فلما علم به طلب إلى سفيان أن يقتله ، ولسرور أمير البصرة من تمكنه أن يرضى حقده قتل ابن المقفع شر قتله ، مع اختلاف الروايات فى تفصيل ذلك ، فى عام ١٤٢ أو ١٤٣ من الهجرة .

ومع أن ابن المقفع كان يتبع تعاليم الإسلام كان ينظر إليه دائماً باعتباره زنديقاً . وهذا لفظ ربما كان يقصد به « المجوسى » ، ولكن الكتاب العرب كانوا يتوسعون فى دلالته ، حتى يشملون به معتنق أية ديانة من الديانات الفارسية ، حين يتبع فى الظاهر تعاليم الإسلام ، ولكنه يبقى على دينه فى السر ، أوقد يستعملونه تعبيراً عن العيب ليدلوا به على الملحد من أى نوع . وإن الكلمة نفسها لتأتى من الكلمة الفارسية Siddiq أو مريد ، وهو لقب يتخذه أى تابع من أتباع

الطائفة المجوسية ، وهو يدل على أن الملقب به له قدرة على معرفة الباطن . وقد جاء عن هذه الفكرة ما يرى بين الشيعة من إخفاء معتقداتهم الحقيقية عن العامة ، والظهور بمظهر الإسلام السلفى . ويرى المسعودى أن الكثير من الزندقات قد جاء بعد نشر ما كتبه مانى وابن ديصان ومرقيون ، وقد ترجمه من الفارسية والبهلوية إلى العربية ابن المقفع وآخرون . ولقد وضعت الترجمات فى عهد منصور — وبأمر منه — من الإغريقية والسريانية والفارسية ، وكانت الكتب الفارسية والسريانية نفسها ترجمات من الاغريقية أو السنسكريتية . وخير ما نعرفه لابن المقفع ترجمة كليلة ودمنة أو «أساطير بيدبا» من الفارسية القديمة ، وكانت هذه نفسها ترجمة من السنسكريتية ؛ وتعتبر ترجمة ابن المقفع إلى العربية نموذجاً من نماذج النثر العربى . ولقد ضاع الأصل الفارسى ، ولكن الترجمة السريانية التى وضعت منها على يد « بود » الداعية النسطورى حوالى عام ٥٧٠ م . لا تزال موجودة وقد نشرت على يدى « بيكل » « وبنفى » عام على عام ١٨٧٦ م . ولقد ضاع الأصل السنسكريتى كذلك فى صورته الأولى على ما يظهر ، ولكننا نجد مادته فى كتابين سنسكريتيين فى صورة مطولة جداً : والكتاب الأول Pantachantra وهو يشمل على قصص ترد تحت أرقام ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٧ من نسخة دى ساسى العربية . والثانى Mahalharata ، وهو يشتمل على الفصول ١١ ، ١٢ ، ١٣ . وواضح أن النسخة السريانية التى وضعها « بود » وهى ترجمة فارسية من الأصل ، تعتبر خير ما يمثل الصورة القديمة للنص . أما فى النسخة العربية التى وضعها ابن المقفع ، فثمة

بعض الشروح والإضافات ، وكلها بالطبع تظهر فى الترجمات المأخوذة عنها فى السريانية المتأخرة ، وفى الترجمات الفارسية المختلفة فى القرون الوسطى التى أخذت عن العربية دون الفارسية القديمة ، وكذلك الترجمات الإغريقية . وهذه الترجمة العربية هى التى أعطت الكتاب انتشاراً أوسع مما كان له من قبل ، أو مما كان يمكن أن يعطى له ، ثم قدمته إلى العالم الغربى . وكانت الحال كذلك مع كتب أرسطو والمادة المشابهة ، إذ أصبحت العربية وسطاً للنقل الشامل ، وإن الإضافات التى أضيفت إلى المادة المترجمة بمرورها خلال اللغة العربية قد انتشرت انتشاراً واسعاً كذلك .

لقد عاش ابن المقفع فى عهد المنصور ، ويقال إن نفس ذلك الوقت شهد وضع نسخ عربية من مؤلفات مختلفة لأرسطو ، ومن المجسطى لبطليموس ، ومن كتاب إقليدس ، ومادة أخرى من الإغريقية . وجاء رجل هندى بكتاب معه إلى بغداد فى الحساب ، وآخر فى الفلك ، عام ١٥٦ هـ ؛ وكان عنوان كتاب الفلك Siddhauta ، وعرف فيما بعد عند الكتاب العرب باسم « السند هند » . وترجمه إبراهيم الفزارى فخلق اهتماماً جديداً بالدراسات الفلكية . ويعد ذلك بقليل جمع محمد بن موسى الخوارزمى بين النهجين الإغريقى والهندى فى الفلك ، فأصبح هذا الموضوع بعد ذلك فى غاية الأهمية بين الدراسات العربية . أما الفلكيون العرب المشهورون ، فينسبون إلى عصر متأخر ، مثل أبى معشر البغدادى تلميذ الكندى ، وقد توفى عام ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م) ؛ ويعرفه كتاب اللاتينية فى القرون

الوسطى باسم « Abrumagar » ، ومثل محمد بن جابر بن سنان البتانى المتوفى عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، ويعرف عندهم باسم « Albstegnus ». وكان الكتاب الهندى فى الحساب أكبر أهمية حتى من هذا ، لأن الأرقام الهندية جاءت من طريقه إلى العرب ، ثم انتقلت منهم إلى أوربا فى الوقت المناسب باعتبارها أرقاما عربية . وهذا النظام العشرى فى الحساب جعل من الممكن أن يتوسع فى الطرق الحسابية ، بل حتى فى الرياضية بصفة عامة ، وهو أمر ما كان ليسهل فى ظل النظم القديمة المربكة.

وجاء المنصور بعد تأسيس بغداد عام ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) بطبيب نسطورى اسمه جورجيس بن بختيشوع من مدرسة جنديسابور ، وجعله طبيب القصر . ومنذ ذلك التاريخ نرى نسقا من الأطباء النسطوريين يتصلون بالبلاط ، ويكونون مدرسة طبية فى بغداد . ومرض جورجيس فى بغداد ، فأذن له بالرجوع إلى جندسابور ، فأخذ مكانه تلميذه عيسى ابن تاكر بخت الذى ألف كتابا فى العلاج . ثم جاء بختيشوع بن جورجيس الذى كان طبيباً لهارون الرشيد عام ١٧١ هـ (٧٨٧ م) ، ثم جاء جبرائيل ، وهو ابن آخر لجورجيس ، ليكون فى خدمة جعفر البرمكى عام ١٧٥ هـ ، وكان مفضلا عند هارون . ولقد كتب المأمون مدخلا للمنطق ، ورسالة فى الأطعمة والأشربة ، كما كتب متنا فى الطب أسسه على المجموعات الطبية التى كتبها ديوسكورس وجالينوس وبولس الأيجينى ، ثم كتابا فى العطور . وكتبا أخرى . أما فى الطب ، فإن النهج الهندى كما يجب أن نذكر قد جىء به إلى جنديسابور ، ثم أضيف إلى النهج الإغريقى ، ولكن الأخير كان واضح التغلب . وكان يحى بن

ماسرجويه اليهودى السورى من أهم من قطنوا بغداد ، وقد ترجم كناشة أهرون Syntagma إلى السريانية ، وأشرف على المدرسة الطبية التى تكونت فى العاصمة الإسلامية . وانحصر البحث العربى فى الطب مدة طويلة فى ترجمة ما كتبه الإغريق ، ثم العمل على مثال ما كان يجرى فى الإسكندرية . وقد أشرنا من قبل إلى الأثر المنكود الذى جاء إلى العرب من المدرسة المصرية التى حولت الطب والكيمياء كليهما إلى اتجاهات نصف سحرية ، وهو انحراف سيئ لم تتخلص منه المدرسة العربية أبدا . ومر وقت طويل قبل أن تخرج الجماعة الناطقة بالعربية مؤلفين أصلاء فى الطب . ففيما حول نهاية القرن الثالث نجد أبا العباس أحمد بن الطيب السرخسى تلميذ الكندى الذى يقال إنه كتب مؤلفا فى النفس ، ومختصرا لإيساغوجى فورفوريوس ، وكتابا ممهدا لدراسة الطب (المسعودى حـ ٢ ص٧٢ ط. أوربا) وكانت الدراسات الطبية فى ذلك الوقت لاتزال إلى حد كبير فى أيدى المسيحيين واليهود ، ونرى الطبيب السريانى يوحنا بن سرابيون (نهاية القرن التاسع الميلادى) يكتب فى المجموعات الطبية السريانية التى انتشرت فى نسختين ترجمت ثانيتهما إلى العربية على يد كتاب متعددين استقل كل منهم عن الآخرين ، ثم ترجمت بعد ذلك بزمن إلى اللاتينية على يد جيرار الكريمونى .

إن أبا الطب العربى الحقيقى هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى عام ٣١١ - ٣٢٠ هـ (٩٢٣ - ٩٣٢ م) ، وكان كتاب اللاتينية يعرفونه باسم rages ، وهو من المشتغلين بدراسة الموسيقى والفلسفة والأدب ، وأخيراً الطب . ويستعمل فى مدوناته الطبية

ما كتب باللغتين الإغريقية والهندية كليتهما . وإن استخدام مقدمات الكتابات الهندية ، وإخضاعها لما كتبه فطاحل الإسكندرية كان فى الحقيقة أكبر مساهمة قام بها الطلاب العرب فى سبيل التقدم بالعلم . ويعاب على ما كتبه الرازى لسوء الحظ أنه ينقصه كثير من النظام والترتيب ؛ فهو مجموعة كتب منفصل بعضها من بعض ، ولهذا لا يعتبر مناسبا لأن يستعمل ؛ ومن أجل هذا — أكثر من أى سبب آخر — حل محله ابن سينا (Avicenna) الذى يخطىء فى اتجاه مضاد ويعاب عليه الإسراف فى الترتيب والتنظيم . ولابد أن نلاحظ أن كبار المؤلفين العرب ، كأسلافهم من السريان ، كانوا بالإضافة إلى كتابتهم فى الطب عادة شراحا ومعلقين على كتب أرسطو وجالينوس .

وكان الخليفة المنصور هو الراعى الذى فعل أكثر ما يمكن لاجتذاب الأطباء النساطرة إلى مدينة بغداد التى أسسها ، وكان كذلك أميرا يسعى جهده لتشجيع المتصدين لإعداد ترجمات عربية من المؤلفات الإغريقية والسريانية والفارسية . وأهم من هذا ما منحه الخليفة المأمون من رعاية ، إذ أسس فى عام ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) مدرسة فى بغداد على مثال مدرسة النساطرة والزرادشتيين الموجودة حينئذ بلا شك ، وسماها « بيت الحكمة » ، ووضعها تحت إشراف يحى بن ما سويه المتوفى عام ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) والذى كان مؤلفا بالسريانية والعربية كلتيهما ، ومتمكنا من استخدام الإغريقية . وإن كتابه الطبى

عن « الحميات » قد أشتهر زمـــنا طويلا ، وترجم فيما بعد إلى اللاتينية والعبرية .

وأهم ما أخرجته هذه المدرسة من آثار تم على أى حال على أيدى تلاميذ يحيى وخلفائه ، ولا سيما أبو زيد حنين بن اسحق العبادى المتوفى عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) ؛ وهو الطبيب النسطورى الذى أشرنا إليه باعتباره قد ترجم إلى السريانية الكتب الرئيسية فى الطب ، وأجزاءً من الأورغانون لأرسطو . ولقد زار الإسكندرية بعد أن تتلمذ فى بغداد على يحيى ، فلم يكتسب فقط التدريب الذى كان يجرى فيما يعتبر حينئذ مدرسة الطب الأولى ، بل اكتسب معرفة قوية بالإغريقية التى نقل عنها فى ترجمات إلى السريانية والعربية . ويتصل بعمله هذا ابنه اسحق ، وابن أخته حبيش ؛ ولقد أعد حنين ترجمة عربية لإقليدس وأجزاء مختلفة من جالينوس وبقراط وأرشميديس وأبولونيوس وآخرين ، كما ترجم قوانين الجمهورية ، وتيماووس لأفلاطون ، والمقولات والطبيعيات والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وتعليقات ثامسطيوس على الكتاب الثلاثين من الميتافيزيقا ، كما ترجم كذلك الإنجيل إلى العربية . ولقد ترجم أيضاً كتاب المعادن المنسوب إلى أرسطو ، وهو الذى اعتبر زمنا طويلا حجة فى الكيمياء ، وترجم المدونات الطبية لبولس الأيجينى . ولقد وضع ابنه إلى جانب مؤلفات له أصيلة فى الطب ترجمات عربية من السوفسطائى لأفلاطون ، والميتافيزيقا ، والنفس ، والكون والفساد ، والعبارة لأرسطو ؛ وهى التى ترجمها حنين إلى السريانية . كما ترجم ابنه ذلك بعض تعليقات فورفوريوس والإسكندر

الأفروديسى وأمونيوس ؛ وبعد ذلك بقليل نجد قسطا بن لوقا السورى أحد أبناء بعلبك وقد تعلم فى بلاد الإغريق ، وامتاز فى الترجمة .

وكان القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى للمترجمين العرب ؛ ومما يستحق الملاحظة أنه بالرغم من أن العمل قد تم معظمه على يد المسيحيين السريان ، وأوحت به التقاليد السريانية فإن عددا كبيرا من الترجمات قد كان من الإغريقية مباشرة على يد قوم درسوا هذه اللغة فى الإسكندرية . أو بلاد الإغريق . وكثيرا ماوضع المترجم نفسه ترجمتين من الإغريقية : إحداهما بالسريانية ، والأخرى بالعربية . وكان ثمة مترجمون من السريانية ، ولكن هؤلاء يأتون عادة بعد المترجمين من الإغريقية . ومن بين المترجمين النساطرة من السريانية أبو بشر متى بن يونس المتوفى عام ٣٣٨ هـ (٩٣٩ م) والذى ترجم إلى العربية القياس والشعر لأرسطو ، وتعليقات الإسكندر الأفروديسى على الكون والفساد ، وتعليق ثامسطيوس على الكتاب الثلاثين من الميتافيزيقا ؛ وكلها مترجم من نسخ سريانية موجودة ، ولقد وضع كذلك تعليقات أصيلة على مقولات أرسطو ، وعلى إيساغوجى فورفوريوس .

أما المترجمون اليعاقبة فيأتون بعد النساطرة ؛ ومن بين الذين ترجموا منهم من السريانية إلى العربية يحيى بن عدى التكريتى المتوفى عام ٣٦٤ هـ ، تلميذ حنين . وقد راجع كثيرا من الترجمات الموجودة ووضع ترجمات للمقولات والسفسطة والشعر والميتافيزيقا لأرسطو . كما ترجم لأفلاطون القوانين وتيمادوس ، وكذلك تعليقات الإسكندر الأفرديسى على المقولات ، وتعليقات ثيوفراسطوس على الأخلاق

أما اليعقوبى أبو على عيسى بن زرعة المتوفى عام ٣٩٨ هـ ، فقد ترجم المقولات والتاريخ الطبيعى وأعضاء الحيوان مع تعليق يوحنا فيلوبونوس أو يحيى النحوى .

وهذا مكان مناسب لتلخيص مدى المادة الأرسطوطاليسية التى كانت فى متناول طلاب الفلسفة من العرب باختصار ؛ فقد كان الأورغانون المنطقى كله موجودا باللغة العربية ، وقد اشتمل على الخطابة والشعر وإيساغوجى فورفوريوس . أما فى علوم الطبيعة، فقد ترجموا الفيزيقا والسماء والكون والفساد والحس وتاريخ الحيوان وكتاب الآثار العلوية وكتاب النفس ، وأما من جهة العلم العقلى والأخلاق ، فقد ترجموا الميتافيزيقا وكتاب الأخلاق النيكوماخية وكتاب الأخلاق الكبرى لأرسطو . ومن الغريب أن كتاب السياسة لم يدخل فى القانون الأرسطوطاليسى ، وإنما حل محله كتاب القوانين أو الجمهورية لأفلاطون . ولقد قبل الطلاب العرب إلى جانب ذلك كتاب المعادن باعتباره من مؤلفات أرسطو ، ولا علم لنا به ، كما تقبلوا كذلك كتاب المسائل الحيلية (الآليات) باعتباره له أيضا .

وقد بقى الأورغانون المنطقى بين هذه الكتب دائما أساسا للثقافة الإنسانية إلى جانب دراسة النحو العربى ، وهذا الأساس المنطقى للثقافة أثر من آثار نظام الثقافة الذى أنشأه السوريون ، ولو أننا يجب أن نذكر أن نظاما مشابها قد نشأ مستقلا فى المدرسية الأثينية قبل أى اتصال بالعرب . ولقد ظل منطق أرسطو دائما علما تقليديا مقبولا ؛ وإن المناقشات الفلسفية والدينية ، وما أضافه الفلاسفة

العرب ، قد تركز بصفة رئيسية فى مسائل ميتافيزيقية ونفسية ؛ وهكذا اهتمت بوجه خاص بالكتاب الثانى عشر من الميتافيزيقا وكتاب النفس ، ولا سيما الكتاب الثالث . وقد شرح علم النفس الأرسطوطاليسى كما أشرنا إلى ذلك فى ضوء تعليقات الإسكندر الأفروديسى ، ومن ثم اتخذ طابعا إلهيا فوق الطبيعى يتضح أكثر ما يتضح فى تعاليم الأفلاطونية المحدثة . وكان أهم شىء فى هذا التطور الذى صادف الأفلاطونية المحدثة هو ما سمى « أثولوجيا أرسطو » الذى ظهر بالعربية عام ٢٢٦ هـ . وكان فى الحقيقة شرحا مختصرا للكتب الثلاثة الأخيرة (٤ — ٦) من تاسوعات أفلوطين ، وصنعه ابن ناعمة الحمصى ، وقد انتشر وقبله الناس عموماً باعتباره عملا أصيلا من أعمال أرسطو . ولربما اعتبر هذا تزييفاً أدبياً ؛ ولكن من المحتمل أن أفلوطين وأفلاطون قد تشابها عليه ؛ ويبدو أن هذا الخلط قد حدث أيضاً من بعض الكتاب الآخرين . وقبل المترجمون الاعتقاد الشائع الذى اعتقده كل شراح الأفلاطونية المحدثة أن تعاليم أرسطو وتعاليم أفلاطون كانتا شيئاً واحداً فى جوهرهما ، وأن الاختلاف الظاهر فيهما لا يمكن أن يستعصى على التخريج . وذاع المذهب المكتمل للأفلاطونيين المحدثين من طريق هذه الأثولوجيا ، وانضم إلى تعاليم الإسكندر الأفروديسى ، فكان له أثر قوى على الفلسفة الإسلامية فى اتجاهات مختلفة . وحين تلقفتها أيدى الفلاسفة الحقيقيين تطورت حتى صارت أفلاطونية محدثة إسلامية[1] تبدو فى صورتها النهائية على يدى ابن سينا

(١) نشأت الأفلاطونية المحدثة مذهباً وثنياً ، ثم التوت بها المسيحية لتناسب تعاليمها ،

وابن رشد ، وأثرت بصورتها هذه تأثيراً قوياً فى المدرسة اللاتينية . ولما انتقلت إلى مجال آخر ، أثرت فى التصوف الإسلامى ، وكانت مسئولة أساساً عن الإلهيات النظرية التى تطور بها هذا التصوف . وتجمعت بعض المبادئ النابعة من هذين المصدرين فى صورة معدلة ، ودخلت فى النهاية إلى علم الكلام عند أهل السنة .

والنقط الرئيسية فى هذا المذهب الأفلاطونى المحدث كما يبدو فى الإلهيات الإسلامية تعرض العقل الفعال ، أو كما عبر عنه الإسكندر الأفروديسى . باعتباره فيضاً من الإله . وتعرض العقل الهيولانى فى الإنسان كأنه لا ينشط إلا من طريق العقل الفعال ، وهذا فى جوهره هو ما قال به الإسكندر الأفروديسى . وهدف الإنسان أن يصل إلى الاتصال الذى يتحد عقله فيه بالعقل الفعال ، ولو أن وسائل الوصول إلى هذا الاتصال وطبيعة الاتصال يختلفان بين مذاهب الفلاسفة والمتصوفة ، كما سنرى فى الوقت المناسب .

ويأتى علم الطب بعد الفلسفة الحقيقية من حيث كونه تراثاً هاماً تسلمه العالم العربى من الهيلينية . ولكن هذا العلم إذ جاء من أصل إسكندرى كان به عيب خطير فى الزيادات التى زادتها المدرسة المصرية على تعاليم جالينوس وبقراط . وهذه الزيادة كما أشرنا من قبل ذات طابع أشبه

= وهى فى صورتيها الوثنية والمسيحية لا تتناسب مع تعاليم الإسلام تناسباً ملحوظاً . ولقد اتخذها فلاسفة المسلمين نقطة ابتداء لهم ، ولكنهم سرعان ما تطورت فلسفتهم فى اتجاه إسلامى خالص ولم يدر بخلد أحدهم أن يقترف إلحاداً أجنبى الجذور ، ويدخل فى الإسلام ما ليس منه .

بالسحر ، وتبدو فى صورة شعوذة الخ « والنظريات المبنية على الأفكار التى تنظر إليها الآن باعتبارها سحراً يعتمد على المشاركة الوجدانية .

ولقد جاءت القوة الدافعة الحقيقية فى النهاية من الهلينية التى انتقلت إليهم، ولكن هذا التأثير جاء مباشرة من النساطرة فى الفلسفة نفسها؛ ومن مدرسة النساطرة والزراد شتيين بجنديسابور فى الطب . ويأتى بعد ذلك بزمن أثر المدرسة الوثنية فى حران ، وكانت لها ميول أفلاطونية محدثة كذلك . وحين مر الخليفة العباسى الثانى « المنصور » بحران فى طريقه إلى الحرب ضد الإمبراطور البيزنطى ، عجب حين لاحظ المظهر الغريب للأهلين الذين خرجوا للقائه بشعرهم الطويل وأرديتهم الضيقة . فلما سأل الخليفة عما إذا كان هؤلاء من المسيحيين أو اليهود أو الزراد شتيين أجابوه بأنهم ليسوا من أية واحدة من هذه الطوائف ؛ فاستخبرهم إن كانوا من أهل الكتاب (لأن أهل الكتاب هم الوحيدون الذين كانوا محل التسامح فى الأقاليم الإسلامية) ، ولكنهم أجابوا على ذلك إجابات مترددة غامضة ، حتى اقتنع الخليفة فى النهاية بأنه اكتشف جالية وثنية ، وكانت تلك هى الحقيقة . ولقد أمرهم باعتناق أحد الأديان الكتابية قبل أن يعود من الحرب ، وإلا فسيقضى عليهم بالموت . . فانزعجوا لهذا انزعاجاً كبيراً ، فاعتنق بعضهم الإسلام أو المسيحية أو الزرادشتية ولكن البعض الآخر رفض أن يترك معتقداته التقليدية . ولا بد أن يكون الأخيرون بالطبع قد مروا بوقت مخيف تماماً وهم يفكرون فى كيفية يتجنبون بها مطالب الخليفة. وأخيراً تقدم أحد الفقهاء المسلمين بمخرج لهم من هذه الصعوبة على

شريطة أن يدفعوا إليه مبلغاً ضخماً فى مقابل ذلك . وعندما تم دفع المبلغ نصحهم بأن يدعوا أنهم من الصابئين ، لأن الصابئين ذكروا فى القرآن باعتبارهم من أهل الكتاب ، ولكن أحداً لا يعلم من هم الصابئون . وثمة طائفة تعرف باسم « Salriyum أو Salaeam » وديانتهم خليط . غريب من العبادة البابلية القديمة ، ومن المسيحية والغنوصية والزرادشتية ، يعيشون فى منطقة البصرة ، ولكنهم كانوا دائماً على حذر فى احتفاظهم بسرية معتقداتهم بالنسبة للغرباء . ومع أنهم كانوا بلاشك هم الطائفة المذكورة فى القرآن تحت اسم الصابئين لم يكد أحد يبرهن على أن وثنيي حران يدخلون تحت هذه التسمية . ولم يعد الخليفة أبدا إلى حران ، وبقى الوثنيون الذين أطلقوا على أنفسهم الصابئة يستخدمون هذا الاسم ، أما من صاروا مسيحيين أو زرادشتيين فقد عادوا إلى عقيدتهم القديمة ، وخضعوا للتسمية الجديدة ، وأما من اعتنقوا الإسلام ، فقد كان عليهم أن يظلوا مسلمين ، لأن عقوبة الموت تقع على كل المرتدين عن هذه الديانة .

وأبرز نجوم حران ثابت بن قرة المتوفى عام ٢٨٩ من الهجرة ، وهو عالم يعرف اللغة الإغريقية والسريانية والعربية ، أنتج كتبا كثيرة فى المنطق والرياضيات والتنجيم والطب ، وكذلك فى الطقوس والمعتقدات التى فى الوثنية التى ظل مؤمنا بها . وتبعه فى ذلك ابنه أبو سعيد سنان ، وحفيداه إبراهيم وأبو الحسن ثابت ، وحفيدا ابنه اسحق وأبو الفرج ، وقد تخصص كل هؤلاء فى الرياضيات والفلك .

ويبدو أنه ينبغى لنا أن نعقد صلة بين حران وبين جابر بن حيان

وهو شخصية تاريخية تماما ، ولكنه غير معروف الزمن ، وإن كان يعتقد أنه كان تلميذا للأمير الأموى خالد الذى تميز ببحوثة فى الكيمياء. وإن اسم جابر ليظهر على كثير من كتب الكيمياء ، وربما كان الكثير منها له حقيقة ، ولقد جاء المسيو بارتيلو فى الجزء الثالث من كتابه «الكيمياء فى العصور الوسطى» المنشور فى باريس عام ١٨٩٣ م بتحليل دقيق للكيميائين العرب ، ويعتقد أن كل مادتهم يمكن تقسيمها إلى قسمين . أحدهما ، إعادة تعبير عن بحوث الكيميائيين الإغريق فى الإسكندرية ، والثانى بحوث أصيلة ، ولو أنها مؤسسة على الدراسات الإسكندرية أولا وقبل كل شىء ، ويعتبر كل هذه المادة الأصيلة أثرا من آثار ما قام به جابر بن حيان الذى يصبح بهذا فى الكيمياء فى مكان أرسطو من المنطق . وينشر بارتيلو فى كتابه ستة مؤلفات ادعاها لجابر ، واعتبرها ممثلة لكل المادة الكيميائية العربية ، إذ أن الباحثين المتأخرين لم يخرجو عن الجادة التى سنها لهم الباحث الأول . ولقد ظل تحويل المعادن مدة طويلة هدفا أساسيا لهم ، ولكن الكيمياء فى عصر متأخر دخلت فى صلة جديدة بالطب ، ولو أنها لم تفقد أبدا طابعها المعدنى الذى نعنيه حين نسمى الكيمياء alchemy بدلا من chemistry .

إن هدف الطلاب العرب من دراسه الكيمياء ، لا يهم العلماء المحدثين ، ولو أن تحويل المعادن لم يعد حلما مستحيلا كما كان يبدو للكيميائيين فى القرن التاسع عشر . وواضح فى الوقت نفسه أنه مع مع الاعتراف بالقصور عند الكيميائيين العرب ، لا شك أنهم كانوا

باحثين أصلاء ، ولو أنهم لم يفهموا نتائج التجارب التى قاموا بها فهما صحيحا .

وتبدأ كل النصوص التى نشرها بارتيلو بتحذير ينص على أن المحتويات يجب أن تظل سرا ، ويشتمل عادة على عبارة تقول إن بعض العمليات الضرورية قد حذفت حتى لا يستطيع الطالب غير المستنير أن يقوم بالتجربة بنجاح ، لأن إنتاج الذهب بوفرة يفسد كل النوع الإنسانى ولاشك أن الكيميائيين العرب قد ادعوا فعلا أنهم وصلوا إلى معرفة وسائل تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب . ولكن التواريخ تشتمل على إشارات متعددة يبدو منها أن هذه الدعاوى قد جرحها كثيرون من المفكرين المعاصرين ، وأن كثيرين جدا من الكتاب العرب نظروا إلى الكيمياء كما كانت تفهم حينئذ باعتبارها احتيالا . ولقد قيل أكثر من مرة إن الفيلسوف الفارابى الذى كان يعتقد إمكان تحويل المعادن الأخرى إلى ذهب ، وكتب مؤلفا فى كيفية هذا التحويل قد عاش من ومات فى فقر مدقع ، على حين نجد ابن سينا ، وهو لم يعتقد بالكيمياء يستمتع إلى حدما بالراحة ، وكان فى إمكانه الحصول على الثروة لو قبلها.

وترجمت كتب كثيرة لجابر إلى اللاتينية فى العصور الوسطى ، فكان لها أثر عظيم فى تكوين المدرسة الغربية فى الكيمياء . وقبل أن يمضى زمن طويل ظهرت كتب أصيلة فى الكيمياء فى غرب أوربا ، وكان قسط كبير من هذه الكتب يحمل اسم جابر ، ولكنه كان تزييفاً . وكان من نتيجة ذلك أن اتخذت شخصية جابر طابعاً نصف أسطورى ، وجرت محاولات لتفسير المقالات المختلفة المتناقضة حول حياته وموته

والبلاد والقرن اللذين عاش فيهما ، وكان ذلك من طريق افتراض أشخاص متعددين يحملون اسم جابر ؛ ولكن يبدو أن الحقيقة هى كونه وصل فى أول حياته إلى مركز الشهرة العظيمة باعتباره مؤلفاً فى الكيمياء ، وأن العصور المتأخرة قد نسبت إليه عدداً من الكتب المزيفة . ويرى بارتياو أن خير القرائن ما ربط بينه وبين حران فى الجزء الأول من القرن الهجرى الثانى .

إن الكيمياء العربية لتعيد عرض ما قام به الكيمائيون الإغريق فى الإسكندرية ، ولكن ربما كان بها عنصر خفى مصرى أصيل . وينظر ، ج . رسكا فى كتابه المسمى (Talala smaragdina) والمنشور عام ١٩٢٦ إلى مادة الكيمياء العربية باعتبارها انتقلت إلى العربية عن طريق اللغة القبطية ، ولكن ذلك غير صادق بلا شك ، لأن النسخ القبطية يبدو فيها أنها ترجمت من أصول عربية .